الصوت عند ابن حزم الأندلسي(456هـ)

فتيحة باريك

السنة الثالثة دكتوراه/قسم اللغة والأدب العربي

جامعـــــة أدرار

الملخص

مما لا يخفى على أحد منا ذلك الدور الكبير الذي لعبه علماؤنا القدامى خدمة للقرآن الكريم دراسة وتفسيرا، إذ وضعوا قواعد ومعايير كان لها نصيب في إثراء الدروس اللغوية عامة، وإرسَاء الدرس الصوتي خاصة، ولعل ابن حزم الأندلسي(456هـ) أحد أولئك العلماء الذين تناولوا الصوت وعنوا بدراسته، لا سيما في جانب تشكيله وبيان مخارجه، ويعود ذلك إلى دافع الحرص على الدين الإسلامي، لا سيما إذا عرفنا أن هذا الجانب يمثل الركيزة الأساسية في فهم العربية ومنه فهم الأحكام الشرعية والتوفيق في استنباطها على أكمل وجه..

Abstract:

It is obvious that the ancient scholars played an important role in the service of Qu'ranic studies. They set rules and criteria which had a great impact in enriching the linguistic courses in general and the phonological ones in particular. IbnHazm (456 AH) is one of the scientists who dealt with the study of sounds focusing on the organs of speech for theseek of a better understanding of Islam.

تمهيد

مما لا يدع مجالا للشك عند أي دارس أن الاهتمام بالأصوات اللغوية ليس جديدا وإنما قديم قدم وجود الإنسان، كونه وسيلة النطق الإنساني الذي يتم به التعبير عن مكنونات النفس وإحداث الاتصال مع الآخرين، فقد اهتم القدماء من الهنود واليونان بالصوت وصارعهم في ذلك العرب، إذ كان للعربية اهتمام خاص بالصوت حين راحوا يذكرون مخارجه ويصفون كيفية حدوثه رغم قلة إمكانياتهم، معتمدين في ذلك على البساطة بتجربة ذاتية وملاحظة شخصية.

وقالوا:" إن علم الأصوات قد نما وشب في خدمة لغتين مقدستين هما السنسكريتية والعربية".[1] ولعل كل هذا الاهتمام بالأصوات قد نشأ كما نشأت باقي الأبحاث اللغوية العربية في كنف الشريعة الإسلامية، فكان الهدف الديني المحرك الأول والمباشر للتفكير في اللغة، هاته التي تمثل مجموعة من القواعد أو الأنظمة التي تصف مجموعة لا حد لها من الجمل، خاصة وأن كل جملة منها لها معنى يقترن بسلسلة من الأصوات، ثم أن الجملة كذلك تتألف من مجموعة من الكلمات، ومعنى الجملة يتوقف على معاني الكلمات التي تتألف منها، وعلى الطريقة التي تتركب وتنتظم، ومنه كانت الأصوات مادة الكلمة والكلمة مادة الجملة والجملة هي– في الغالب– مادة اللغة.

---

[1] – نادية النجار: اللغة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين، مراجعة وتقديم: عبده الراجحي، دار الوفاء – الإسكندرية، ص37.

واللغة لكونها نظاما إعلاميا غرضه إقامة التواصل[1] فالإنسان كائن حي مضطر باستعداده الخلقي والنفسي إلى الخطاب على نفس قدر اضطراره إلى الحياة الاجتماعية، ولذلك يكون إنتاجه للصوت بوصفه ظاهرة فيزيولوجية فيزيائية بغرض استخدامه في تحقيق عملية التواصل بين أفراد المجتمع البشري " لما كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمحاورة، انبعثت إلى اختراع شيء يتوصل به إلى ذلك فمالت الطبيعة إلى الصوت ووفقت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتركيبها معا، ليدل بها على ما في النفس من أثر"[2].

ولقد كانت عناية العلماء بالدراسة الفيزيائية للظاهرة الصوتية بارزة في أبحاثهم، إذ رصدوها بالوقوف على كثير من حقائقها وحاول تفسيرها معتمدين على ما وفقهم الله إليه من المحاولة الذاتية التي تبين المراحل الثلاث التي يمر بها الصوت من منشئه إلى غاية إدراكه بالإذن، وإلى مثل ذلك ذهب ابن حزم في القرن الرابع الهجري، وهو يشير إلى بعض القضايا الصوتية في رسائله، إذ تناوله في كتابه التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية تحت اسم مراتب وجوه البيان، مبينا أن هذه الوجوه الأربعة لا خامسا لها، وأنها يتصل بعضها ببعض اتصالا وثيقا يجعل من نقصان أحدها اختلالا في البيان.

---

[1]– ينظر: نعمان بوقرة، النظرية اللسانية عند ابن حزم الأندلسي (قراءة نقدية في مرجعيات الخطاب اللساني وأبعاده المعرفية)، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العربي– دمشق، (د.ط)، 2004م، ص27.

[2] – أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية– الجزائر، (د.ط)، 1999م، ص67.

وقد تكلم عن الصوت تحت الوجه الثالث قائلا: "والوجه الثالث: إيقاع كلمات مؤلفات من حروف مقطعات مكن الحكيم القادر لها المخارج من الصدر والحلق وأنابيب الرئة والحنك واللسان والشفتين والأسنان وهيأ لها الهواء المندفع بقرع اللسان إلى صمخ الآذان فتوصل بذلك نفس المتكلم مثل ما قد استبانته واستقر فيها إلى نفس المخاطب وتنقله إليها بصوت مفهوم بقبول الطبع منها للغة اتفقا عليها"[1].

فاللغة تتكون من مجموع كلمات، هذه الكلمات تتألف من حروف مقطعة، أي مجموعة أصوت متقطعة يصدرها جهاز النطق الإنساني، ولعلنا لهذا السبب نجده يستفتح حديثه بالصدر وهو عضلة أدرك أهميتهها في إحداث عملية التصويت إذ يخرج الهواء بعملية التنفس من الرئتين اللتين تدفعانه خارجا[2]، فتعترضه الأعضاء الأخرى الثابتة والمتحركة من حلق وحنك ولسان وشفتين وأسنان، لتضبطه وتشكله، فكلما لامس الهواء نقطة معينة حدث صوت معين[3].

وما أنابيب الرئة إلى طريق لذلك الهواء الذي سيتغير بعد ملامساته إلى أصوات واضحة، والنطق الإنساني لا يقف عند هذه المرحلة التي يصيح فيها المرء بأصوات، ولكنه كلمات مستقلة كونت لغات ذات قواعد وأصول، والنظام الصوتي هو الأساس الذي تتبني عليه باقي الأنظمة اللغوية، ومادة هذا النظام هي الأصوات منفردة كانت أو مركبة، وتقوم

---

[1]– ابن حزم: الرسائل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر–بيروت، الطبعة الأولى، 1981م،ج04، ص96.

[2] – ينظر: نعمان بوقرة، النظرية اللسانية، ص28– 29.

[3] – ينظر: نعمان بوقرة، نفسه، ص30.

عملية الصوت اللغوي حسب التعريف الحزمي على سلسلة من الخطوات المتعاقبة التي تتوالى من المتكلم إلى السامع، والتي تتخلص في المراحل التالية:

1– عملية عقلية ذهنية تجري في ذهن المتحدث قبل إنتاج الكلام.

2– عملية إنتاج الصوت عن طريق جهاز النطق وهذه الخطوة تمثل الجانب الفسيولوجي أو العضوي للأصوات، والذي يتمثل في عملية النطق وما يندرج تحتها من أعضاء النطق(علم الأصوات لنطقي والفسيولوجي).

3– عملية انتقال الصوت من المتكلم إلى أذن السامع وهو ما يسمى بالجانب الأكوستيكي أو الفيزيائي، وهو يتمثل في الموجات الصوتية المتجهة من المتكلم إلى أذن السامع عبر الوسيط الناقل– الهواء المندفع– (علم الأصوات الأكوستيكي– الفيزيائي).

4– عملية استقبال الصوت عند المستمع وهي خطوة تفسير الجانب الفسيولوجي العضوي الآخر، حيث يتم فيها تأثير الموجات الصوتية في الجهاز السمعي للمستقبل– الأذن– (علم الأصوات السمعي).

5– عقلية ذهنية تجري في ذهن المستقبِل بعد وأثناء وصول الصوت إليه[1].

فنلاحظ أن هذه العمليات تمتزج فيما بينها لتنتج الصوت اللغوي الذي يتشكل وفق القواعد الصوتية الخاصة بكل لغة، وتتكامل هذه القواعد الصوتية مع مثيلتها من القوانين الصرفية التي تقوم عليها هذه اللغة؛ ثم تتبلور بدورها مع النظام النحوي التركيبي في بناء الجملة، وإذا صحت

---

[1] – **فونولوجيا القرآن – دراسة لأحكام التجويد في ضوء علم الأصوات الحديث، أحمد راغب أحمد، جامعة عين شمس، ص05.**

الجملة ووافقت النظام اللغوي العام لم نشكّ في وصولها إلى ذهن السامع وفهمها على الوجه المراد منها، خاصة إذا عرفنا أن تلك الكلمات قد رمزت بنطقها في تركيب واحد جملا تعبر عن ما يدور في ذهن صاحبها من أفكار[1] لتصل إلى غيره أيضا بصورة واضحة يفهمها فتستقر في ذهنه بمدلولها، وبذلك تكون الأصوات مجرد وسيلة لتحقيق التفاهم بين أبناء الجنس الواحد حسبما تفاهموا بينهم عليه.

أهمية النطق في إدراك الصوت اللغوي:

إن للصوت حين إصداره أعضاء نطق تتعاون لتشكيل وضعية معينة تسمح باستخدام الهواء المندفع من الرئتين في عملية الزفير، هذا الهواء الذي يمثل مادة الأصوات لا يؤدي دوره ما لم يتم تحريكه بشكل مقصود، وبطرق مختلفة، فوضع أعضاء النطق بصورة مقصودة في صورة تتيح توظيف الهواء لإصدار الأصوات وإلا خرج الهواء زفيرا قويا غير مستثمر في هذه العملية المركبة[2].

فهذه العملية المركبة التي هي صدور الأصوات بانتقال الهواء الخارجي في شكل موجات إلى أن تصل صمخ الأذن ومن ثمة إلى المخ فيترجمها ويفسر معناها، هي عملية أساسية لإيصال وإدراك الكلام، وهي تتم تحت إشراف أداتي النطق والسمع، فهما أداتان لا تكتمل عمل التواصل إلا بهما وهو ما أشار إليه ابن حزم حين قال: " فتوصل بذلك نفس المتكلم مثل..... للغة اتفقا عليها، فتستبين من ذلك ما قد استبانته

---

[1]– ينظر: ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، مطبعة نهضة مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص23.

[2]– ينظر: أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، دار الفكر–دمشق، دار الفكر المعاصر– بيروت، ط04، 1433ه– 2012م، ص89.

نفس المتكلم ويستقر في نفس المخاطب مثل ما قد استقر في نفس المتكلم"[1].

فالمعنى المستقر في نفس المتكلم لا بد أن يصل بتمامه دون زيادة أو نقصان إلى نفس المتكلم شريطة أن يكون الصوت مفهوما غير خارج عن اللغة التي اتفق بينه وبين المنصت له عليها. فإن كان المتكلم واعيا لما يقول متحدثا بصوت مفهوم واضح لم يقع إشكال عند المستمع في إدراك ما يقول والعكس حاصل إن لم يكن كذلك.

ونحن نرى من هنا أن ابن حزم قد حَرَصَ حِرْصَ علماء اللغة القدامى لا سيما العرب على تدريب أذن المتكلم على السماع، ولسانه على النطق، ويبقى علم التجويد والقراءات شاهدا على ذلك، وكذلك كان ابن حزم الذي لم يقف على اللغة إلا لعلاقتها بالقرآن الكريم ثم لفهمه فهما صحيحا حتى يكون " الفوز الأبد برضاه والخلود في جنته".

فالعلاقة التي تربط المتكلم بكلامه ذات أهمية كبيرة، وعليه وجب على المتحدث قبل صياغته للكلام أن يكون واعيا مدركا لمحتواه الدلالي، وأن يكون كلامه أيضا موافقا لما قد تعارفوا عليه في نظام التقعيد اللغوي بينهم، فهو يقول:" الوجه الثاني بيانها عند من استبانها وانتقال أشكالها وصفاتها إلى نفسه واستقرارها فيها بمادة العقل الذي فضل به الناطق من النفوس وتمييزه لها على ما هي عليه، إذ من لم يُبِنْ له الشيء لم يصح له علمه ولا الاخبار عنه"[2]. فاللغة المتواصل بها والتي هي بدورها ألفاظ واقعة على المعاني ومتكونة من أصوات لا بد من وضوح شكلها

---

[1]– ابن حزم: الرسائل، ج04،ص96.

[2]– ابن حزم: الرسائل، ج04، ص95،96.

وصفاتها عند صاحبها واستقرارها لديه بمعناها وصلت إلى ذهن الآخر سليمة " فإذا لم تكن المعاني في النفس كانت خبرا كاذبا"[1] وما جاز أن يُعلم الآخر ولا أن يخبره عما يختلج في نفسه لأنه لم يفهمه هو فكيف سيفهم الآخر عنه، فالأصل في الفهم والإفهام أن يكون عن طريق الوسيلة الطبيعية التي هي النطق والسمع لأنها عماد كل نمو عقلي وأساس كل ثقافة ذهنية[2]. فالاضطرار إلى الحياة الاجتماعية أساس اضطرار الإنسان إلى الاستعداد الخلقي والنفسي للخطاب، وهو ما يجعله مؤهلا لإنتاج الصوت واستخدامه على أحسن وأكمل وجه، يقول ابن سينا:" لما كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمحاورة، انبعثت إلى اختراع شيء يتوصل به إلى ذلك فمالت الطبيعة إلى استخدام الصوت ووفقت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتركيبها معا، ليدل بها على ما في النفس من أثر."[3]فالإنسان بحاجة دائمة وطبيعية لإعلام الآخر عما في نفسه بعلامات وضعية فكان أنسب شيء إلى ذلك الصوت.

الصوت والحرف:

لم يعرض ابن حزم للفرق بين الصوت والحرف قصدا ولكن من خلال إشاراته المدرجة في أماكن متفرقة من الرسالة يمكننا القول بأنه قد أدرك وجود فاصل بينهما فنلاحظ في تعريفه ذكر الحرف دون الصوت" إيقاع

---

[1] – ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين، اعتناء: صدقي العطار، إشراف مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر العربي–بيروت– لبنان، 1420ه– 1999م، ج03،ص91.

[2] – ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص14.

[3] – ابن سينا: الشفاء، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط01، 1988م،ص 01،02.

كلمات مؤلفات من حروف مقطعات...."إشارة واضحة إلى تلك التي وقف عندها كبار العلماء في أن الصوت عملية حركية يقوم بها الجهاز النطقي وتصحبها كبار العلماء في أن الصوت عملية حركية يقوم بها الجهاز النطقي وتصحبها آثار سمعية معينة تأتي من تحريك الهواء فيما بين مصدر إرسال الصوت وهو الجهاز النطقي ومركز استقباله وهو الأذن.

انتقال الصوت:

اهتم ابن حزم بحركة الصوت وانتقاله في الهواء إذ يقول:"..... فهيأ لها الهواء المندفع بقرع اللسان إلى صمخ الآذان"[1]. فالصوت بخروجه من المصدر الخاص به ينتقل عبر الهواء ليصل أذن السامع وبذلك يستغرق زمانا ويحتل مكانا، وبما أن القرع سببا في حدوث الصوت كما جاء في قولهم: "...بل الصوت بَيِّن واضح من أمره، وأنه ليس يحدث إلا عن قلع أو قرع"[2]. ومثل ذلك يرى بعضهم حيث يشيرون إلى أن اضطرار القارع الهواء إلى أن ينضغط وينفلت من المسافة التي يسلكها القارع إلى جنبتها بعنف وقوة وشدة وسرعة ومنه كان حصول الصوت هو مقابل القرع بمسافة[3].أما ابن حزم فإننا نجده لم يغفل ذلك إذ يقول: " وهو يقطع الأماكن – يعني الصوت – في مدة متفاوتة على قدر البعد والقرب وقوة القرع وضعفه، فلذلك صار بين أو القرع الذي هو عنصر الصوت وبين سماع السامع له مدة"[4]. فالمسافة مطلوبة أثناء القرع

---

[1]– ابن حزم: الرسائل، ج04، ص96.

[2] – ابن سينا: الشفاء، ص82.

[3] – ينظر: ابن سينا: أسباب حدوث الحروف،تح: محمد حسان الطيان، يحيى مير علم، تق: شاكر الفحام، أحمد راتب النفاخ، مطبوعات مجمع اللغة العربية–دمشق، (د.ط)، (د.ت)، ص103.

[4]– ابن حزم: الرسائل،ج04، ص159.

وإن وجدت مسافة فهذا يعني أن هناك أيضا استغراقا لزمن ما بقدر تلك المسافة طولا وقصرا، ثم شدة وسرعة وصوله، وهي واقفة حول طبيعة القرع، "وإنا نستبين ذلك إذا كان المصوت منك على بعد جدا فحينئذ يصح أن له مدة كالذي يشاهد من ضرب القصار الأرض بالثوب فنراه حين يفعله بلا زمان ثم يقيم حينا، وحينئذ يتأدى إلينا الصوت. وهكذا القول في الرعود الحادثة مع البروق، فإن البرق يرى أولا حين حدوثه في الجو بلا مهلة ثم يقيم حينئذ حينا ثم يسمع الرعد"[1].

إضافة إلى هذا فإن انعكاس الصوت الخارج من المصوت الذي يقابل الجبل يقرع صوته بعد أن صدر منه الجبل ثم يرجع إلى أذنه وكأنما آخر قد أرسل له كلاما أورد عليه بنفس ما قال[2] وكأنه بذلك يصور لنا حركة الصوت حيث انتقلت بفعل الهواء لتصطدم بالحاجز – الجبل_ الذي وقف أمامها ثم تعود في نفس الاتجاه الذي رسمته أولا إلى قائلها.

<u>علاقة المتكلم بالصوت:</u>

أدرك ابن حزم تلك العلاقة الكائنة بين اللغة وصاحبها أو بين الكلام وقائله كونه مجموعة أصوات تصدر من جهاز نطق المتكلم ليؤلف بينها إيصالا لمعنى محدد " ألفاظ يعبر بها عن المسميات والمعاني المراد إفهامها"[3]. وما الألفاظ إلا محصلة صوتية تشير إلى مسميات معينة موجودة في الواقع، يعبر بها عن مختلجات النفس وأفكارها وفي ذات الصدد يقول ابن جني وهو يعرف اللغة أن اللغة في صورتها الخارجية

---

[1]– ابن حزم: الرسائل، ج04، ص159.

[2]–ينظر: ابن حزم: الرسائل، ج04، ص96.

[3]– ابن حزم: الرسائل، ج04، ص411.

نظام معين من الأصوات تعارفت عليه جماعة لغوية معينة للتعبير عن أغراضها[1]، فهي الخاصية الأولى والأساسية عند الإنسان، إذ تنفرد بخصائص مميزة؛ لذلك فهي تمثل في الأصل مجموعة من العلامات والرموز مثل ما أشار إلى ذلك أيضا المحدثين " نظام من الرموز."[2] التي يستعملها الناس فيما بينهم للإيصال والتواصل. ولعل إقراره بهذه الحقيقة اللغوية منحته الأسبقية لعلماء اللغة المحدثين في هذا المجال، وذلك حين عد الألفاظ بمثابة علامات ورموز اتفاقية هدفها التعبير عن معان ودلالات مقصودة بعينها[3]، لأن الكلمات ما هي إلا وحدات لغوية يبني بها المتكلمون كلامهم، ولا يمكن اعتماد كل منها كحدث كلامي قائم بذاته[4]، وهو ما يتضح من تعريفه للغة على أنها: "ألفاظ يعبر بها عن المسميات والمعاني المراد إفهامها"[5].

فالعلاقة التي تربط ألفاظ اللغة بفهم المعاني ووضوح الأفكار تكمن وراء وضعها للتعبير عما تقتضيه اللغة، ولتعبر كل لفظة عن المعنى الذي علقت عليه، يقول: "وكل لفظة فمعبرة عن معانيها ومقتضية، لكل ما يفهم منها، ولا يجوز أن يكلف المخاطب فهم بعض ما تقتضيه اللفظة دون بعض، إذ ليس ذلك في قوة الطبيعة البتة"[6]، فليس من الطبيعي أن يجهد

---

[1]– ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، (د.ط)، (د.ت)،ج01، ص15.

[2]– عبد الكريم الرديني: فصول في علم اللغة العام، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع–بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، 1423 هـ– 2002م، ص15 – 16.

[3]– ينظر: د.صلاح الدين بسيوني: الأخلاق والسياسة عند ابن حزم، مكتبة نهضة الشرق–ا لقاهرة، (د.ط)، (د.ت).، ص76.

[4]– ينظر: د.أحمد مختار عمر: علم الدلالة، علم الكتب، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1993م، ص 12.

[5]– ابن حزم: الرسائل،ج04، ص411.

[6]– ابن حزم: الرسائل،ج04، ص202.

المرء نفسه في تأويل الألفاظ وتحميلها من المعاني ما ليس منها، لأن اللغة الطبيعية تمتاز باختصاص كل لفظ فيها بمعنى محدد وبسيط لا يشاركه في ذلك معنى آخر، تفاديا للوقوع في الالتباس والخطأ، ومن هنا يتجلى الجانب الوظيفي للغة، إذ القصد من وضع اللغة هو تحقيق التفاهم بين أفراد المجتمع؛ لذا لزم على كل فرد أن يكون واعيا ومدركا بأن "الألفاظ إنما وضعت للإفهام لا للتلبيس"[1]، فما حقيقة التخاطب إلا مجموع ألفاظ تعبر عن حقيقة الوضع اللغوي[2]، ولذلك كان من أصول التخاطب بين كل من المتكلم والمستمع يجب أن يخضع لعرف اللغة واصطلاحها.

ونجده يتحرى التدقيق في وضع ألفاظ اللغة بحسب استخدامها، وتحديد مدلولاتها بحيث لا توقع الأسماء على غير مسمياتها فلكل مسمى اسما يختص به من دون غيره، وهذا بتوفيق من الله ﷻ، فقد علم آدم عليه السلام أسماء الأشياء، لقوله: ﴿كُلَّهَا ٱلْأَسْمَآءَ ءَادَمَ وَعَلَّمَ﴾ (البقرة31)، فالآية الكريمة تشير إلى إحاطته سبحانه وتعالى نبيه آدم عليه السلام بالبيان عن جميع الموجودات على اختلاف وجوهها وتباين معانيها التي من أجل اختلافها وجب أن تختلف أسماؤها، ومعرفة وقوع المسميات تحت الأسماء بلوغا للحقيقة واليقين "وثبت في العقول أنه لا بيان إلا بالألفاظ المعبرة عن المعاني التي أوقعت عليها في اللغة"[3]، فليس بإمكان الإنسان أن يتصرف في توقيع الألفاظ على غير ما يقتضيه معناها؛ لأن في ذلك مدعاة وإفساد

---

[1]– ابن حزم: الرسائل،ج04، ص202.

[2]– ينظر: محمد بنعمر: الإشكال الدلالي في قراءة النص (قراءة في تجربة علماء الأصول)، (د.ط)، (د.ت)، ص60.

[3] – ابن حزم: الرسائل، ج04، ص282.

للبيان الذي يقع به التفاهم[1]، وحجته فيها فكرة منطقية توحي بأن توهم اليقين ليس يقينا؛ لأنه يذهب بصاحب هذا الوهم المغالط إلى تعميم حكم الجزء بالخطأ على الكل؛ إذ أن الكثير من المنسوخ ليس كله، والكثير من الكذب في كلام الناس هو بعضه، وما يثبت حمله على البعض ليس بالضرورة يثبت حمله على الكل، وفي ذلك مغالطة وإبطال للحقائق[2].

فعملية النطق بكونها فعلا اختياريا متصرفا في وجوه شتى غرضها تعريف الآخرين ما في الضمير، والمتكلم إن لم يكن واعيا ومدركا لمحتوى ما يصوغ من الكلام دلالة ويكون موافقا لما تعارفت عليه الجماعة من رموز كان كلامه فارغا " والوجه الثاني بيانها عند من استبانها وانتقال أشكالها وصفاتها إلى نفسه واستقراره فيها بمادة العقل الذي فضل به العاقل من النفوس وتمييزه لها على ما هي عليه، إذ من لم يبن له الشيء لم يصح علمه ولا الإخبار عنه". فحلقة الوصل بين المتكلم والمخاطب هي واقفة عند المتكلم أولا فإن صحة حروفه وتبينت معانيها في ذهنه لم يعدم وصولها بوضوح إلى المخاطب، إذ أنه إذا تكلم أحدنا بكلام يقصد منه تفهيم غيره، فإنه يتوجب عليه عقله لمعاني الكلمات، ثم إذا تم له ذلك أمكنه تعريف غيره بها، ومنه كانت الحكمة في وضع الألفاظ للمعاني وهي أن الإنسان خلق بحيث لا يستقل بتحصيل جميع مهماته، فاحتاج إلى أن يعرف غيره ما في ضميره ليمكنه مما عنده، ولما كان حصول هذه الإرادة متحققا في النفوس يحاول الناس إدخال تلك

---

[1]– ينظر: ابن حزم:الرسائل،ج04، ص278.

[2]– ينظر: ابن حزم: الرسائل،ج04، ص284– 285.

الأصوات عن طريق التأليف في الوجود توسلا بها لإقامة الإفهام والتفهيم[1].

فالإنسان يحتاج إلى أن تكون في طبعه قدرة على أن يُعلم الآخر بما في نفسه بعلامة وضعية، وكان أخلق ما يصلح لذلك هو الصوت، لأنه يتشعب إلى حروف تتركب منها تراكيب كثيرة من غير مؤونة تلحق البدن، وتكون شيئا لا يثبت ولا يبقى فيؤمن وقوف من لا يحتاج إلى شعوره عليه، فجعلت الطبيعة للنفس أن تؤلف من الأصوات ما يتوصل به إلى إعلام الغير[2].

فالصوت مادة بها يعرب الفرد عما بخاطره ويكون قادرا على ذلك فيتسنى له بذلك إيصال ما يدور بخاطره إلى شريكه بما اتفقا عليه من الرموز اللغوية، هذه الرموز اللغوية قد تحولت إلى كلمات عبارات ثم جمل، فبلاغة القول أو الكلام ببلاغة الاستحضار في النفس، لأن الكلمة في الحقيقة الوضعية ما هي إلا صوت النفس، وصوت النفس أول الأصوات الثلاثة التي لا بد منها في تركيب النسق البليغ، حتى يستجمع الكلام بها أسباب الاتصال بين الألفاظ ومعانيها، وبين هذه المعاني وصورها النفسية، فيجري في النفس مجرى الإرادة.

وإن البيان لا يؤلف أصواتا لرياضة الصدر بها وصلابة الحلق عليها، ولكنه صورة نفسية في الطبيعة وصور الطبيعة في النفس، فإذا لم يكن حيا ناطقا يلمح بعضه بعضا ولم يكن بتركيبه وطريقة نظمه ولم يكن

---

[1]– ينظر: الرازي: التفسير الكبير، المطبعة البهية المصرية، ط01، 1357ه– 1938م، ج01، ص25.

[2]– ابن سينا: الشفاء، ص200.

بتركيبه وطريقة نظمه كأنما يحمل من معناه للنفس مادة الإرادة أو الفكر، لم يجد شيئا وانقطع به غرضه، وصارت معانيه كأن ليس لها أصولا فيها، وكأنها مادة جامدة، بل هو ربما سفل إلى منزلة الإشارة التي هي اللغة الأولى منذ كان الإنسان يتكلم بحواسه[1].

فالسلسة الصوتية لا تسمى كلاما إذا لم تقرن بمعنى واضح، وإذا كانت كذلك كان الإنسان قد نزل إلى مراتب الضعف والبُعد عن البلاغة والبيان، " فإن المتكلم عليه ان يقصد بتلك الألفاظ معانيها والمستمع عليه أن يحملها على تلك المعاني، فغن لم يقصد المتكلم بها معانيها بل تكلم بها غير قاصد لمعانيها أو قاصدا لغيرها أبطل الشارع عليه قصده."[2] بل وقد يكون أشد من ذلك فيصير أشبه في ذلك بالحيوانات، إذ تصدر أصواتا قد نتوهم فيها معنى وهي ليست كذلك، فهذا الزرزور، والببغاء وكذا العقعق*نجد أنها قد تدربت على لفظ كلام مفهوم، لا يعني أنه كلاما صحيحا يؤخذ به لأن مُصدِره لم يقصده، وإنما كرره كتكراره لسائر التغاريد التي تعود عليها، بخلاف الإنسان الذي مكنه العلي القدير من عقل وسخر له جهاز نطق سليم، وفكر واعي، وبذلك فهو يدرك تمام الإدراك كلامه من حيث اللفظ والمعنى ويعلم موضعه فيعبر له عن كل ما يريد دون تعقيد أو ترك غموض.

---

[1] - ينظر: الرافعي: اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مر: درويش الجويدي، المكتبة العصرية–صيدا– بيروت، 1424ه– 2003م، ص181.

[2] – ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين، ج03، ص92.

*العقعق: طائر من الفصيلة الغرابية ورتبة الجواثم، وهو صخّاب، له ذنب طويل ومنقار طويل والعرب تتشاءم به. مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، جمهورية مصر العربية، (د.ط)، (د.ت)، ص428.

أقسام الأصوات المسموعة:

يقسم ابن حزم الأصوات المسموعة إلى قسمين: قسم يدل على معنى وآخر لا يدل على معنى، فأما الذي لا يدل على معنى يقول فيه" لا وجه للاشتغال به، لأنه لا يحصل لنا منه فائدة نفهمها"[1]. وهذا الوجه يخرج عن صنيع العقلاء وإنما يربطه بأهل الجنون والمرضى وذلك لمفارقته الوضوح والبيان يقول: " فإن هذا الكلام الذي ذكرت يدل على أن قائلة لا يعقل أو أنه مريض، قيل له وبالله تعالى التوفيق، إنه لم يدلك على ذلك بمعناه، لكن لما فارق كلام أهل التمييز كان كالدليل على آفة بصاحبه"[2].

والقسم الثاني الدال على معنى فهو قسمان: قسم دال بالطبع كصوت الديك الذي يدل في الأغلب على السَّحور، وكأصوات الطير الدالة على نحو ذلك، وكأصوات البلارج والبرك* والإوز والكلاب في الليل الدالة في الأغلب على أنها رأت شخصا، وكأصوات السنابر في دعائها أولادها وسؤالها عند طلبها السفاد** وعند التضارب[3]. وإما تدل بالقصد وهي من

---

[1]– ابن حزم : الرسائل، ج04، ص104.

[2] – ابن حزم: الرسائل،ج04، ص105.

*البرك جمع بارك مثل تجر وتاجر، والبرك جماعة الإبل البارکة، وقيل هي إبل الحواء كلها تروح عليهم بالغا ما بلغت وإن كانت ألوفا، والبرك يقع على جميع ما برك من جميع الجمال والنوق على الماء أو بالفلاة من حر الشمس أو الشبع. ينظر: ابن منظور : لسان العرب، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ج12، ص 397.

**السفاد : سفد الطائر أنثاه، وسافدها سفادا، وتسافدت الطيور، يكنى به عن الجماع، فيقال سفد امرأته ومنه السفود لأنه يعلق بما يشوى به علوق السافد. ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة، معجم في اللغة والبلاغة، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1996 م، ص207.

[3]– ينظر: نعمان بوقرة : النظرية اللسانية، ص30.

خاصية اللغات الإنسانية التي يتخاطب بها الأفراد فيما بينهم ويتراسلون بالخطوط المعبرة عنها في كتبهم لإيصال مرادهم إلى بعضهم البعض[1].

أهمية الكتابة:

أشار ابن حزم إلى أهمية الكتابة في الحياة الاجتماعية ودورها في تطور الحضارات وبين قيمتها التواصلية وذلك بوصفها نظاما إشاريا تختزل به الأدلة اللسانية في شكل علامات خطية تهدف إلى التعبير والإبانة عن مكنون النفس، منطلقا في ذلك من أصغر وحدة لغوية التي هى الصوت إذ يقول:" أما المرتبة الرابعة فإشارات تقع باتفاق، عمدتها تخطيط ما استقر في النفس من البيان المذكور بخطط متباينة ذات لون يخالف لون ما يخط فيه متفق عليها بالصوت المتقدم ذكره فسمي كتابا تمثله اليد التي هي آلة لذلك فتبلغ به نفس المخاطب ما قد استبانه فتوصلها إلى العين التي هي آلة لذلك....."[2]، فالمتضح من قوله أن تلك الأصوات الصادرة من شخص ما تنبعث لتؤدي غرضا ما، ولو أنها اعتمدت جانبا واحدا فكانت مسموعة دون أن تكون مخطوطة لاندثرت وتلاشت، كونها لا تمكث في الهواء إلا بقدر وصولها إلى المستمع الذي سيأخذ خطه منها في الحين، وربما تندثر لديه أيضا إذ هو معرض للنسيان.

فقد اختار المولى عز وجل بحكمته الإلهية اليد لتكون آلة لتقيد تلك المعاني وتخط تلك الألفاظ بصناعة الكتابة، ثم إن من شأن القوة الصانعة أن تصوغ لها الخطوط والأشكال بأقلام، وتودعها وجوه الألواح وبطون

---

[1]– ينظر: ابن حزم: الرسائل،ج04، ص105 – 106.

[2]– ابن حزم: الرسائل، ج04، ص97.

الطوامير ليبقى العلم مفيدا لفائدة من الغابرين إلى الماضين وأثرا من الأولين إلى الآخرين وخطايا من الغائبين إلى الحاضرين[1]. "ولولا هذا الوجه – أي الكتابة– ما بُلِّغت إلينا حكم الأصوات على آباد الدهور ولا علمنا علم الذاهبين على سوالف الإعصار....."[2] فالكتابة وسيلة اجتماعية وثقافية وحضارية، إذ أنه أمدتنا بأخبار من سلف وعلومهم؛ على رغم أنهم فارقوا الدنيا ومرت على ذلك سنوات وقرون، بل هي أبلغ من ذلك حتى إذا أنها تعبر عن الحالات النفسية التي يمكن أن يخرج فيها الشخص وهو يريد التعبير عن الذي بنفسه، وبذلك تكون معوضا للكلام "إن للكتاب كيانا في بعض الأحيان، إما لحصر في الإنسان وإما لحياء وإما لهيبة تغم، حتى إن لوصول الكتاب إلى المحبوب وعلم المحب أنه قد وقع بيده وراء لذة يحبها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية، وإن لرد الجواب والنظر إليه لسرورا يعدل اللقاء، ولهذا ما ترى العاشق يضع الكتاب على عينه وقلبه ويعانقه"[3].

---

[1]– ينظر: اخوان الصفا، الرسائل، طبعة الجزائر– الجزائر، (د.ط)، (د.ت)، ج04، ص49.

[2]– ابن حزم: الرسائل،ج04، ص97.

[3] – ابن حزم: الرسائل،ج04، ص139.

المصادر والمراجع:

1. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مطبعة نهضة مصر، (د.ط)، (د.ت).
2. أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية– الجزائر، (د.ط)، 1999م.
3. أحمد راغب أحمد: فونولوجيا القرآن – دراسة لأحكام التجويد في ضوء علم الأصوات الحديث، جامعة عين شمس.
4. أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، دار الفكر–دمشق، دار الفكر المعاصر– بيروت، ط04، 1433ه– 2012م.
5. أحمد مختار عمر: علم الدلالة، علم الكتب، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1993م.
6. إخوان الصفا، الرسائل، طبعة الجزائر– الجزائر، (د.ط)، (د.ت).
7. براجيشتراسر: التطور النحوي للغة العربية، ترجمة رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي– القاهرة، ط02، 1414ه– 1994م.
8. ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، (د.ط)، (د.ت).
9. ابن حزم: الرسائل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر–بيروت، الطبعة الأولى، 1981م.
10. الرازي: التفسير الكبير، المطبعة البهية المصرية، ط01، 1357هـ– 1938م.
11. الزمخشري، أساس البلاغة، معجم في اللغة والبلاغة، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – لبنان، الطبعة الأولى.
12. ابن سينا: أسباب حدوث الحروف، تح: محمد حسان الطيان، يحيى مير علم، تق: شاكر الفحام، أحمد راتب النفاخ، مطبوعات مجمع اللغة العربية–دمشق، (د.ط)، (د.ت).

13. ابن سينا: الشفاء، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط01، 1988م،
14. صادق الرافعي: اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مر: درويش الجويدي، المكتبة العصرية–صيدا– بيروت، 1424ه– 2003م.
15. صلاح الدين بسيوني: الأخلاق والسياسة عند ابن حزم، مكتبة نهضة الشرق–القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
16. عبد الكريم الرديني: فصول في علم اللغة العام، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع–بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، 1423هـ– 2002م.
17. ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين، اعتناء: صدقي العطار، إشراف مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر العربي–بيروت– لبنان، 1420ه– 1999م.
18. محمد بنعمر: الإشكال الدلالي في قراءة النص (قراءة في تجربة علماء الأصول)، (د.ط)، (د.ت).
19. مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، جمهورية مصر العربية، (د.ط)، (د.ت).
20. ابن منظور : لسان العرب، دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت،(د.ط)، (د.ت).
21. نادية النجار: اللغة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين، مراجعة وتقديم: عبده الراجحي، دار الوفاء – الإسكندرية.
22. نعمان بوقرة، النظرية اللسانية عند ابن حزم الأندلسي (قراءة نقدية في مرجعيات الخطاب اللساني وأبعاده المعرفية)، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العربي– دمشق، (د.ط)، 2004م.